## 10 نحو وجهة إسلامية لعلم النفس

فؤاد أبو حطب

- ندوة علم النفس، القاهرة، 1989م، أبحاث ندوة علم النفس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1413هـ/1993م، ص 129–253 [124 صفحة من القطع المتوسط].
- لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.
- مجال البحث (الكتاب): أسلمة علم النفس.

❑ ❑ ❑

يفتح الكاتب ورقته – أو بحثه الطويل حتى ليكون كتاباً كاملاً في باب أسلمة علم النفس – بقصة الهجوم الضاري على علم النفس وخاصة من الكتاب الإسلاميين يقابلهم فريق آخر من المدافعين عنه. ويرجع سبب نجاح المهاجمين إلى خصوصية الظرف والوقت تزامناً مع الصحوة الإسلامية وإلى المكانة الرفيعة لبعض المشاركين فيه ولكفاءة بعضهم في استغلال وسائل العصر. مما حدا ببعض علماء النفس المسلمين للوقوع في حالة التنافر المعرفي Cognitive dissonance التي تنشأ من تعامل المرء مع النقائض. ويرجع الباحث هذا التشخيص إلى مالك بدري (1987).

وللخروج من هذه الأزمة فإن الباحث يريد تكريس الجهود في المرحلة الراهنة لبناء وجهة إسلامية Islamic paradigm لعلم النفس تحدد «موجهات» العمل في الميدان وتضع استراتيجيات التوجيه الإسلامي لعلم النفس. ومثل هذا التوجه سيخدم علماء النفس المسلمين وغير المسلمين لأنه سيساهم في حل مشكلات مزمنة في علم النفس المعاصر وفلسفة العلم أساساً.

* يبتدأ الباحث خطوات تحقيق هدفه بعرض حجج النقاد الإسلاميين لعلم النفس بنظرة تحليلية تحاورية. ومن أبرز الحجج التي ساقها الباحث:

### 1. الشك في علمية علم النفس

ويرى الباحث أنه لا يوجد فرع من فروع العلم التجريبي – ومنه العلوم الفيزيائية – يؤدي إلى المعرفة اليقينية أولاً، وليس هناك من ملاحظات بشرية معصومة من الخطأ ثانياً، فما يوجه لعلم النفس يمكن توجيهه لأي علم آخر.

### 2. مادية علم النفس

ويقصد بها التصور المادي للنفس الإنسانية، ويرى الباحث أن عرض الأمر بهذه العمومية يخل بالحقيقة من ناحية، ويظلم علم النفس من ناحية ثانية.

ويستشهد الباحث (بأغروس وستانسيو، 1989) في تركيزهم على محورية العقل وعلى فسيولوجيا المخ التي أثبتت استقلال العقل واستحالة اختزاله إلى مادة، وأن في علم النفس المعاصر حركة تتجه ذات الاتجاه وهي إعطاء الأولوية للعقل.

### 3. بناء علم النفس على أساس الطبيعة الحيوانية للإنسان

وخلاصة هذه الحجة -كما يراها الباحث- أن علم النفس قد بنى تصوره للطبيعة الإنسانية على أساس حيواني مسترشداً في ذلك بنظرية التطور.

ويرى الباحث أن أمر أو نظرية التطور قد أصابها الكثير من التحوير والتغيير ولم تعد كما كانت في أولها. ثم يذكر بعض الحقائق الهامة التي يتفق عليها علماء البيولوجيا وعلماء النفس في هذا الصدد، منها: أن البحوث أثبتت وجود ما يسمى بالخصائص المميزة للنوع. أي أن الاختلاف في النوع وليس في الدرجة، وأن علماء التطور لا يقولون بانحدار الإنسان من أصل حيواني، وأنه ليس هناك اتصال بين الإنسان والحيوان بما يؤكد استقلالية الإنسان وتميزه، ولا تحمل بحوث علم النفس الحيواني المعنى التطوري بالضرورة، وأن هناك الكثير من علماء النفس يؤمنون بإن العمليات التطورية لم تحدث جزافاً وإنما خلقاً.

### 4. الربط بين علم النفس والتحليل النفسي (وخاصة عند فرويد)

ويرى الباحث أن استخدام التحليل النفسي في العلاج النفسي مهمة طبية قبل أن تكون نفسية، من ناحية أخرى فالباحث يرى أن نظرية فرويد في التحليل النفسي أكثر تفصيلاً وتعقيداً مما يقدمه النقّاد الإسلاميون له، والتي يصفها - الهجوم على علم النفس من خلال فرويد - بنوع من حرب طواحين الهواء. ذات الوقت فإن الباحث لا يطلب من علماء النفس المسلمين الصمت عن

التشويه شبه المتعمد لميدانهم، وعدم جعل علمهم بؤرة للدعاية الرخيصة والجنس والعقد الجنسية الفرويدية وتفسيراته الإسطورية ويهوديته بل صهيونيته.

### 5. رفض التجريب في علم النفس

ويرى الباحث أن علم النفس التجريبي بدأ قبل فرويد أولاً، وأن بحوثه لم تقتصر على المعمل وتجاهل البيئات الطبيعية للإنسان ثانياً، وأن هناك خصائص عامة للمنهج التجريبي تستخدم في جميع مجالات المعرفة ثالثاً، وأن المنهج التجريبي الذي يؤكد لعلم النفس «علميته» لا يتعارض مع قيم ومبادئ تعاليم الإسلام رابعاً.

### 6. التهوين من شأن تعاليم الإكتشاف في علم النفس

ويرى الباحث أنه ليس من مهام العلم - أي علم - اختراع ظواهره لأنها موجودة منذ خلق الله سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها، إنما تنصب مهمته في: جعل وضعنا للظواهر موضع البحث أكثر دقة، وتفسيرنا لها أكثر معقولية، وضبطنا لها وتنبؤنا بها أكثر إحكاماً، وعلم النفس ليس شذوذاً عن بقية العلوم الأخرى.

### 7. تركيز علم النفس على السلوك المرضي

ويرجع الباحث ذلك إلى تنوع مجالات السلوك الإنساني (والحيواني) التي يتناولها علم النفس بالدراسة مما ترتب عليه اتساع نطاق اهتماماته وأبحاثه وتطبيقاته على نحو يكاد يشمل كل ميادين هذا السلوك.

### 8. سوء استخدام علم النفس

مثل تطبيق نظريات التعلم الشرطي على الشعوب للسيطرة عليها، وعمليات غسيل المخ المستخدمة في أجهزة المخابرات، وتسخيره لصالح الرأسمالية الصناعية في الغرب.

ويبرئ الباحث علم النفس من الاستخدام السيئ لمعطياته لأن ذلك يستخدم

في كل العلوم وأن هذه القضية محكوم عليها بالقيم الأخلاقية النهائية للعلم.

**9. علم النفس الحديث هو علم نفس الإنسان الأبيض**

ويرى الباحث أن علماء النفس الغربيين يوجهون أحياناً ذات النقد لتطبيقات علمهم.

* وينتهي الباحث من هذه الحجج التسع بخلاصة مفادها أن أزمة علم النفس في العالمين العربي والإسلامي أزمة صنعها علماء النفس العرب والمسلمون لأنفسهم بأنفسهم.

فالغرب لا يلام أن وجّه علم لنفس لمصالحه وأهدافه، ولكن علماء النفس عندنا هم الذين وقعوا في شرك التبعية العلمية لهم عن وعي أو غير وعي وهيأوا بذلك كل الفرص للطعن في العلم الذي ينتسبون إليه.

ولا شك فإن الباحث رغم دفاعه ودفعه للحجج التسع فإنه يتعرض لردود فعل متفاوته عند علماء النفس المسلمين مستخدمين الإستجابات الدفاعية «حل مشكلة التنافر المعرفي لدى أصحابها»:

- فهناك فريق يدعو إلى الفصل بين علم النفس - علم - عن الإسلام - كدين - مع احترامهم له.
- وهناك فريق يدعو إلى الرفض من خلال تقدير العلم واحتقار الإسلام وهم قلة.
- وهناك فريق يعمل على التشويه أو التحريف للرد على المنتقدين الإسلاميين.
- ويلجأ بعضهم إلى التقمص أو التوحد ولجوئهم إلى استخدام نفس منطق المنتقدين وطريقتهم في التفكير.
- وهناك اتجاه إسقاطي يمثل التوفيقية بين الإسلام وعلم النفس.
- وآخرون يسايرون النقد من ناحية، ويكتبون أبحاثهم على أساس مبادئ علم النفس الحديث ونظرياته وممارساته من ناحية ثانية، ثم يبحثون عن

آيات قرآنية وأحاديث ترقيعية ليدَّعوا التأصيل الإسلامي لعلم النفس.

* وفي الجزء الثالث من البحث يبدأ الباحث بطرح الاتجاهات التي حدثت لبناء علم نفس إسلامي ويرى أن هناك محاولات إيجابية كثيرة قد تمت في هذا الإطار ويصنفها إلى:

1. بناء علم نفس ديني إسلامي ذي طبيعة إسلامية (أول من دعا إليه أحمد فؤاد الأهواني 1963).
2. بناء علم نفس إسلامي (نموذج الباحث هو محمد رشاد خليل) لبناء علم نفس إسلامي يقوم على تراث العرب الذي التقى مع منهج الإسلام.
3. بناء علم نفس قرآني (بدأه عبدالوهاب حموده في منتصف الخمسينات) يتناول العلاقة بين القرآن وعلم النفس من منظور سايكولوجي ويعتبر الباحث إسهام محمد عثمان نجاتي وعدنان الشريف إسهامات مميزة في هذا الاتجاه.
4. بناء علم نفس إسلامي صوفي أو علم التصوف النفسي (يعطي الباحث نموذج حسن الشرقاوي (1976)، مصطفى محمود (1976)، (1988)، عامر النجار (1980)، حيث يرون أن تأريخ الصوفية الصادقين في تصرفهم، بعد استبعاد الأدعياء منهم، يدلنا على أنهم كانوا على درجة عالية من التكيف النفسي والعقلي والاجتماعي.
5. بناء علم نفس إسلامي شيعي (محمود البستاني 1988) حيث يقيم أساسه النظري على مقولات للإمام علي كرم الله وجهه عن الشهوة والعقل عند الملائكة وبني آدم.
6. الدراسات النفسية في تراث العلماء المسلمين الذي يتمثل في إعادة قراءة التراث العربي والإسلامي فيما يخص النفس البشرية قراءة سايكولوجية حديثة.

* ولأن الباحث يتكلم عن وجهة إسلامية لعلم النفس فقد استهل جزءه الرابع في توضيح مفهوم الوجهة في العلم (الوجهة عند الباحث ترجمة للـ Paradigm، كما ذكر في أول العرض) الذي اقترحه Kuhn لأول مرة عام 1962، حيث اكتشف أن العلم ليس تراكمياً أو خطياً ولكنه تناوبياً بين الهدوء والثورة

من ناحية، وضرورة التمييز بين العلم كما يجب أن يكون والعلم كما هو بالفعل من ناحية ثانية، وإلى أن في العلم أكثر من مجموعة واحدة من القواعد المعمول بها وضرورة التمييز بين القواعد العقلانية rational والقواعد الإتفاقية conventional من ناحية ثالثة.

ثم يبدي الباحث وجهة نظره في المعنى الأساس للوجهة العلمية مسترشداً في استخدامه لهذا المصطلح بالآيات القرآنية أو المعنى القرآني لها ويراها الأنسب للإستخدام عند تحديد معالم خصوصية إسلامية لعلم النفس.

ثم يتكلم بعدها عن مفهوم (الوجهة) في علم النفس الحديث ليتكلم عن المنظورات المختلفة في علم النفس، ليعرض الوجهة السلوكية (كمثال على ذلك) من حيث أصولها وفلسفة العلم ومفاهيمها الأساس وموضوع علم النفس وموقفها من القضايا الخلافية. ثم ينتقل الباحث بعدها من السلوكية القديمة (الكلاسيكية) إلى السلوكية الجديدة (يحيل الباحث القارئ إلى كتب أخرى له تناولت منظورات متعددة (وجهات) لعلم النفس).

* ثم يطرح الباحث معالم الوجهة الإسلامية لعلم النفس ليبتدئ بمعنى العالم في الإسلام، وموضع علم النفس بين العلوم الإسلامية (ويطيل ويفصِّل بها كثيراً)، وأوجه استخدام العلم من الوجهة الإسلامية، ويركز خلالها على النموذج السلوكي الإسلامي، ثم موقف الوجهة الإسلامية لعلم النفس من القضايا الخلافية فيه (يحددها الباحث بـ 18 (ثنائية) أو قضية خلافية تضمنتها قائمة (Watson /1967).

ويؤجل الباحث تفصيل الوجهة الإسلامية في هذه القضايا الخلافية إلى تقرير منفصل لاحق، ويضيف ذات الوقت قضيتين خلافيتين أخريتين هما: ثنائية الخير والشر في الطبيعة البشرية وثنائية الفطرة والخبرة كمؤثرين في السلوك الإنساني.

ويدخل الباحث في مفهوم (الوسطية) في محاولة لحل هذه الخلافيات كموقف متوازن دون أن يدخل في تفاصيلها. ولكنه يتطرق بدلاً من ذلك إلى فطرة الإنسان (كطبيعة بشرية) والصلة بين العقل والجسم.

مرة أخرى لا يدخل الباحث في تفصيلها حيث لا يتسع المقام - كما يقول الباحث - للدخول في تفاصيل هذه المشكلة وتناول الحلول التي اقترحت على مدى الفكر الإنساني لها.

❑ ❑ ❑

**عناوين رئيسة:**

أسلمة علم النفس، التصور الإسلامي للطبيعة البشرية، اتجاهات عدة لأسلمة علم النفس.

❑ ❑ ❑

**ملاحظات:**

- البحث له قيمة كبيرة وفيه جهد كبير ويدل على عمق المتخصص في فهم الخلفية العلمية والتطبيقية لعلم النفس.
- عند ذكر الباحث لحجج الإسلاميين المنتقدين لعلم النفس كان يركز على نقل نص أو مقولة واحدة من شخص واحد فقط (يكرر مصطفى محمود ومحمد رشاد خليل عدة مرات خلال الحجج التسع). ولا أعتقد أن الشخص الواحد يمكن أن يمثل اتجاهاً أو مدرسة أو (حجة) يمكن أن توصف ضمن التيارات الإحتجاجية، وإلا فقد تكون لدينا مئات المحاججات بعدد من يكتب في هذا المجال.
- أفاض الباحث كثيراً جداً في المقدمات لعرض وجهته الإسلامية لعلم النفس، ولكنه عندما وصل إلى الوجهة ذاتها لم يدخل في تفاصيلها ولا حتى لحلول المشاكل المعلقة أو الخلافيات التي تؤزم علم النفس المعاصر ضمن منظوراته (أو وجهاته كما يسميها الباحث) المتعددة.
- فالبحث أخذ 124 صفحة من القطع المتوسط، وكان الأساس أن يكون هناك التصور الإسلامي في محدد الوجهة الإسلامية لعلم النفس أكثر من الخوض في العلم ومعنى العلم والتجريب... إلخ رغم أهميتها بالطبع.

❑ ❑ ❑